أماراباك: *مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا* www.amarabac.com
المجلد الرابع، العدد الحادي عشر (٢٠١٣). ص ص ٤٣-٥٤

دراسة نقدية نحوية في نظرية التلقي عند سيبويه من منظور لسانيات الخطاب

دلال دحيدل (*)

الملخص: ارتأى هذا البحث أن يدرس النظرية النقدية وهي نظرية التلقي والتقبل في المؤلَّف النحوي الأول وهو كتاب سيبويه، تلك النظرية التي تركز على المتلقي وتفاعله مع النص، دراسة تتبعت ملامح هذه النظرية ومعطياتها، تلك الملامح التي بدت واضحة عند إمام النحو العربي، فقد بدا المتلقي حاضرا في ذهن سيبويه، حيث عبر عنه بالمخاطب وهذا المتلقي تباين موقفه بين الإنكار لعدد من آراء سيبويه أو تأييدها. وكذلك أصَّل سيبويه لبعض القواعد لخدمته مثل أمن اللبس حيث اعتبره محذوراً إذا لم يكن المخاطب على علم به، والمقام الذي أشار له سيبويه حيث تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية ساعة أداء المقال وهي التي توضح المقال دلالياً وتركيبياً.

الكلمات الأساسية: نظرية التلقي، سيبويه، لسانيات الخطاب.

Dalal Dehedeh (*)

Abstract: This research sought to study the modern critical theory. This theory is the reception and the acceptance in the first syntactic authored book، which is Sibawayh's book. This theory focuses on the recipient and his interaction with the text. In this study، the researcher traced the features and data of this theory. These features became obvious to the Imam (Head) of Arabic syntax. The recipient seemed to be present in Sibawayh's mind whereby he expressed this recipient by the second person pronoun (the addressee). The position of this recipient varied between denial of a number of Sibawayh's opinions and supporting them. Sibawayh also laid the foundation for some rules to serve him such as avoiding ambiguity whereby he considered it prohibited if the addressee doesn’t know about it.

Key words:

(*) فلسطين، جامعة الخليل، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، dalalad@hebron.edu

التمهيد

تقوم العلاقة بين النص والتلقي بكل ما تحمله من مفاهيم التبادلية والإشكاليات عن هذه العلاقة التي إن فُقِدَت ضاعت أهمية النَّص، أي تأثيره وفاعليته، وإذا ضعفت العلاقة بين النص والتلقي يحرم النَّص من النظرة الجادة والرؤية العميقة؛ لذلك لم يخضع أي مؤلف للدراسة والنقد والتحليل الكاشف لأسرار إبداعه مثل مؤلَّف سيبويه (الكتاب).

إن ارتباط هذا البحث بكتاب سيبويه، قرآن النحو العربي، يضفي عليه أهمية خاصة للمشتغلين في المجال اللغوي، وفي الوقت نفسه سيربط قرآن النحو بالنظرية النقدية الحديثة، وهي نظرية التلقي تلك النَّظرية التي تعيد صياغة معنى النص من خلال متلقيه، وما يحيط به لفهم النَّص، فبينما اهتمت المناهج السابقة بالمؤلف وما يحيط به، ركزت هذه النظرية على القارئ أثناء تفاعله مع النَّص، قصد تأويله وخلق صورة معناه المتخيَّلة. ومنظور هذه النظرية أنها تثور على المناهج الخارجية التي ركزت كثيرا على المرجع الواقعي، واهتمت كثيرا بالمبدع وظروفه التاريخية، وجلُّ اهتمامها ينصب على المعنى وأهملت عنصرا فعالا في عملية التواصل وهو القارئ الذي ستهتم به نظرية التلقي والتقبل. وترى نظرية التلقي ضرورة المشاركة الفعالة بين النص الذي ألفه المبدع والقارئ المتلقي، أي إن الفهم الحقيقي للنص ينطلق من موقعة القارئ في مكانه الحقيقي، وإعادة الاعتبار له باعتباره هو المرسل إليه، والمُستقْبِل للنص ومستهلكه، وهو القارئ الحقيقي: تلذذا ونقدا وتفاعلا وحوارا. فالمؤلف ما هو إلا قارئ للأعمال السابقة، وأيضا سيبويه متلقٍ أو مستمع فتلقى من الخليل وحماد بن سلمة ويعقوب الحضرمي والأخفش الأكبر[١].

إن العمل الإبداعي يتكون من عنصرين أساسين: النص الذي قوامه المعنى، والقارئ الذي يتقبل آثار النص سواء أكانت إيجابية أم سلبية في شكل استجابات شعورية ونفسية. وهذا يجعل النص يرتكز على الملفوظ اللغوي، والتأثير الشعوري للقارئ في شكل ردود تجاه حمولات النَّص. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن العمل يتموقع في الوسط بين النص والقراءة من خلال التفاعل الحميمي والوجداني الاتصالي بين الذات والموضوع، أي بين النص والقارئ. وإذا كانت المناهج الأخرى تركز على اتجاه واحد في القراءة من النص إلى القارئ فإن منهجية التقبل والقراءة تنطلق من خطين مزدوجين متبادلين: من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص. ولا يحقق نص المؤلف مقصديته ووظيفته إلا من خلال فعل التحقق القرائي وتجسيده، والتأرجح بين الإخفاء والكشف على مستوى استخلاص المعاني عن طريق الفهم والتأويل والتطبيق[٢].

ولا شك في أن المؤلفين القدامى اهتموا بالمتلقي باعتباره هدف الرسالة الأدبية التي تتوجه إليه في المقام الأول؛ ولكن هذا الاهتمام بالمتلقي لا يقابله اعتراف بدوره في النقد ويظل الدور الأساسي للمبدع. والتلقي والتقبل ليس مقصورا على النص الأدبي فقط وإنما في النص اللغوي وأيضا في القرآن يوجد المتلقي والتلقي، وقد اتضح من الناحية التاريخية جواز الاختلاف في الفهم والتأويل في التفسير أو الشرح، وهذا يعكس أهمية دور المتلقي. ومن تجليات اختلاف المفسرين والشراح في التلقي تأويل اللغة والقرآن والإبداع حسب اتجاهات الفرق المختلفة. فثمة منطلقات تحدد رؤية المفسر من خلال ثقافته.

المتلقي

ألف سيبويه كتابه من أقوال العلماء ومما استنبطه هو بنفسه فكان جماع الفن، شاملا كل ما يحتاج إليه طالبه مع الترتيب والتبويب، غير أن ترتيب الكتاب على غير المألوف في كتبنا المتداولة،

---

[١] ـ الزبيدي، أبو بكر طبقات النحويين واللغويين (١٩٧٣)، ٦٦-٧٢، السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،(١٩٩٨)، ٢، ٢٢٩-٢٣٠.

[٢] للوقوف على الجذور المعرفية لنظرية التلقي ينظر بشرى صالح موسى المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠١ وصلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٢ ود. محمد مفتاح، التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠١.

مع غموض لا يفصح عن المقصود لأول وهلة وتداخل في كثير من الأبواب[٣]، لأن النحو العربي كما نقرأه في مرجعه الأول (الكتاب)، ليس مجرد قواعد لتعليم النطق السليم والكتابة الصحيحة باللغة العربية، بل هو أكثر من ذلك "قوانين للفكر داخل هذه اللغة، وسيبويه لم يدخر جهدا في إيصال المعلومة لقارئه.غير أنه في عبارة الكتاب يؤثر الانصباب والاسترسال والذي كان لقرائه ردود أفعال مختلفة، وبذلك نقول: إن المتلقي عنده يختلف، فقد كان القدماء يستصعبون عبارته وبذلك تلقوا تلك النصوص بردود أفعال مختلفة، فها هو المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ الكتاب عليه: هل ركبت البحر؟ استصعابا لما فيه[٤] وكذلك قال ابن كيسان[٥]: (نظرنا في كتاب سيبويه، فوجدناه في الموقع الذي يستحقه، ووجدنا ألفاظه تحتاج إلى عبارة وإيضاح، لأنه أُلِّف في زمان كان أهلُه يألفون مثل هذه الألفاظ فاختصر على مذاهبهم.. .فقد روى المبرد[٦] عن المازني أنه قال:" قرأ علي رجل كتاب سيبويه في مدة طويلة، فلما بلغ آخره قال لي: أما أنت فجزاك الله خيرا، وأما أنا فما فهمت منه حرفا؛ ولهذا انبرى الخلق لشرح هذا الكتاب والتعليق عليه وشرح عيونه وغريبه ونكته والاستدراك على ما فاته من الأبنية، فهو كغيره حيث تعاني معظم كتب النحو من الطول المفرط الناشئ عن التكرار وجو الاستطراد والحشو، فضلا عن الشغف بالمناقشات والجدل والإغراق في تتبع العلل والإكثار من التقسيمات والتفريعات.

إنَّ القارئ عند سيبويه هو القارئ الخبير الذي حاز على شروط القراءة الصحيحة، ويتضح لنا في هذا السياق دور القارئ المفسِّر في فهم النَّص، أو القارئ الشارح للنص اعتمادا على الفهم والذوق من خلال الأدوات اللغوية والثقافية التي تستمد من الواقع، فالقراء عنده لهم سمات وخصائص تميِّزهم عن غيرهم من القرَّاء، إذ تخضع قراءاتهم لسلسلة من الإجراءات والعمليات الذهنية والمهارات الفردية إلى جانب حيازتهم على ذخيرة معرفية يستندون إليها في إنجاز قراءآتهم لهذا النص، وقد اتضح تاريخيا الاختلاف في الفهم والتأويل وحاجة الكتاب للشرح. فيقول علي بن سليمان الأخفش[٧]: (عمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها، فجعل فيه بينا مشروحا، وجعل فيه مشتبها، ليكون لمن استنبط ونظر (ويقول الأخفش وهو أول من فتح باب الخلاف مع سيبويه: ومن ذلك قوله: يجوز إذا قلت: أيهم ضربت أن تقول: زيدا ضربته، لأن الهاء منصوبة وهي في المعنى مستفهم عنها، فمعنى كلام الأخفش أنَّ الرفع والنصب جميعا اختيار، فالرفع والنصب جميعا اختيار، فالرفع على اللفظ والنصب على المعنى. وليس الأمر على ما قال سيبويه، وذلك أنَّ المعنيين إذا تساويا في اللفظ والمعنى كان إتباع اللفظ أولى بالاختيار)[٨] ومن تجليات اختلاف المفسرين والشراح في التلقي تأويل لغة الكتاب والإبداع في ذلك حيث وصلت شروح الكتاب إلى ما يزيد عن الخمسين والاختلافات في الآراء. وهذا أيضا، صحيح حين يعمد تاريخ التلقي إلى شهادات، القراء الذين يطلقون، عبر فترات مختلفة من الزمن، أحكاما على أثر معين. وفي هذه الحالة، يكشف تاريخ التلقي الضوابط التي توجه هذه الأحكام مما يشكل نقطة انطلاق لتاريخ الذوق لجمهور القرَّاء. وإنه لا يمكن الحصول على هذه المسافة من استقراء ردود أفعال القراء على الأثر، أي من تلك الأحكام النقدية التي يطلقونها عليه. إن أمر فهم الكتاب كمن يركب البحر كما قال المبرد. فلغته ليست هي لغة من جاء بعده، ولذلك فكثير من مصطلحاته تحتاج إلى الإلف والممارسة. ومن عناوينه أيضا الملتبس الذي أثار الجدل مثل: " هذا باب الفاعلين والمفعولين الذين كل واحد منها يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به " ومعناه هذا باب التنازع"[٩] ومن الأمثلة الأخرى " باب ما ينتصب من المصادر لأنه حال صار فيه المذكور " قال السيرافي " هذا باب فيه صعوبة

---

٣ مسعود، فوزي، سيبويه جامع النحو العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٦، ٧٩-٨٠؛ ضيف، شوقي، المدارس النحوية، القاهرة، دار المعارف،١٩٧٦، ٦٢؛ طنطاوي، محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٧،٤٨-٤٩.

٤ السيوطي، بغية الوعاة ١، ٢٦٩-٢٧٠.

٥ القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، أنباه الرواة على أنباء النحاة، القاهرة دار الفكر العربي،١٩٨٦، ٣، ٥٧ الأنباري أبو البركات، نزهة الألباء، ٢٠٨.

٦ القفطي، أنباه الرواة على أنباء النحاة،١٩٨٦، ١، ٢٨٣.

٧ السيوطي، بغيية الوعاة، ١-٤٦٣-٤٦٦.

٨ الأعلم، الشنتمري، النكت في تفسير كتاب سيبويه، ١، ٢٢٦.

٩ سيبويه، الكتاب،١،٧٣.

ونقل كلام النحويين من البصريين والكوفيين. وكذلك قال الزجاج: هذا باب لم يفهمه إلا الخليل وسيبويه "ومهما يكن من أمر فان قراءة الكتاب عبر التاريخ على يد المتخصصين من علماء النحو واللغة جعله متعة ومنفعة لما يؤثر في الشراح والمفسرين ويترك أثره في الخطابات التي تناولت علوم العربية، وجعلت بعضهم كالكسائي والفراء يذهب إلى الخلاف مع سيبويه في ترتيب النحويين من خلال ألقاب الإعراب وتسمية الحروف وهناك من اعترض عليه في مسائل شتى، وفي الكتاب من المسائل النحوية المثيرة ما كانت تجعل النحاة يتجادلون في التأويل والتفسير ومرد ذلك كله إلى الأصالة في البنيان والمتانة في التكوين[١٠] . وكذلك متلقيه من بعده واصلوا هذا الحوار فمنهم من أيَّد ومنهم من خالف، وكان المتلقي عنده متنوعا بين من أنكر كثيرا من قوله مثل: المبرد الذي نقد سيبويه في مسائل الغلط، وبلغت مئة وإحدى وثلاثين مسألة، وبعد ذلك وضع ابن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ كتاب الانتصار الذي انتصر فيه لسيبويه ونقض آراء المبرد وعارض ابن جني كثيرا من آراء المبرد [١١]، غير أن المبرد عاد عن قراءته الأولى ورأيه الأول في مسائل الغلط الذي تتبع بها سيبويه، وقال عندما سئل: إن هذا كتاب كنَّا عملناه في أوان الشبيبة والحداثة واعتذر أبو العباس منه[١٢].

وقد قال ابن تيمية[١٣] : يسأل أبا حيان -حين نقل عنه في مسألة واخطأ — ما كان سيبويه نبي النحو ولا معصوما عن الخطأ؟ بل أخطأ في ثمانين موضعا من كتابه [١٤]وهذا يركز على عملية القراءة الواعية التي يتحقق من خلالها النص، وتتم عمليات الاستقبال عندما يفك القارئ شفرات النص، ولا تتم إلا من خلال تداخل القارئ مع النص لحظة استقباله للنص، والقارئ عنده ليس من القراء الذين يكتفون بردود الفعل ذات القيمة المتوسطة، بل هو قارئ منغمس في النص والعلاقة بين القراءة والكتابة هي أنهما وجهان لعملة واحدة أو لفعل واحد لا سبيل لفصلهما عن بعضهما فالأثر لا يكتب ولا يبرز للوجود إلا موصولا بالقراءة، وهي آخر المطاف.

المتلقي المخاطب

وهكذا لا يكون العمل الإبداعي إلا من خلال المشاركة التواصلية الفعالة بين المؤلف والنص والجمهور القارئ، وقرب المخاطب وانتباهه[١٥] ورغم ما ذُكر يتضح لنا في الكتاب أن المؤلف كان على تواصل تام مع المتلقي، فقد استحضره سيبويه في جميع مسائل الكتاب، وقد أشارت عبارات سيبويه إلى المخاطب، حيث عدَّ المخاطب أحد أعمدة الموقف الكلامي، ومن ثمَّ كانت مخاطبة المتلقي معيارا لصحة الكلام، ومن ذلك: "واعلم أن رويداً تلحقها الكاف وهي في موضع افعل وذلك كقولك: رويدك زيداً ورويدكم زيداً. وهذه الكاف التي لحقت رويداً إنما لحقت لتبين المخاطب المخصوص لأن رويد تقع للواحد والجميع والذكر والأنثى فإنما أدخل الكاف حين خاف التباس من يعني بمن لا يعنى وإنما حذفها في الأول استغناء بعلم المخاطب أنه لا يعني غيره. فلحاق الكاف كقولك: يا فلان للرجل حتى يقبل عليك. وتركها كقولك للرجل: أنت تفعل إذا كان مقبلاً عليك بوجهه منصتاً لك. فتركت يا فلان حين قلت: أنت تفعل استغناء بإقباله عليك. وقد تقول أيضاً: رويدك لمن لا يخاف أن يلتبس بسواه توكيداً كما تقول للمقبل عليك المنصت لك: أنت تفعل ذاك يا فلان توكيداً. وذا بمنزلة قول العرب: هاء وهاءك وها وهاك وبمنزلة قولك: حيهل وحيهلك[١٦] .

---

١٠ تنوعت المسائل الخلافية بحيث شملت معظم المسائل النحوية وأصبحت مجالا للتأليف ينظر: الأنباري، كمال الدين أبو البركات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

١١ ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، دمشق، دار القلم، ١٩٩٣، ١٩٩-٢٠٠، ٢٣٩ .

١٢ المبرد، المقتضب، ١، ٩٠.

١٣ العسقلاني، حافظ العصر شهاب الدين أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية، السفر الأول، ١٥٣.

١٤ السيوطي، بغية الوعاة ١٢١.

١٥ العلوي، أحمد، الطبيعة والتمثال، ٢٠٦.

١٦ سيبويه، الكتاب، ١، ٢٤٤-٢٤٥.

فمما جاء على وقع قوله وهو مقاس العائذي (الطويل)[١٧]: فدًى لبني ذُهْل بن شَيْبانَ ناقتي إذا كانَ يومٌ ذو كواكبَ أشهَبَ "أي إذا وقع". وقال الآخر عمرو بن شأس(الطويل)[١٨]:

بَني أسَدٍ هَلْ تعلمونَ بَلاءنا إذا كانَ يَوْماً ذا كواكبَ أشْنَعا
إذا كانت الحُوُّ الطوالُ كأنما كساها السلاحُ الأرجوانَ المضلَّعا

أضمر لعلم المخاطب بما يعنى وهو اليوم. وسمعت بعض العرب يقول أشنعا ويرفع ما قبله كأنه قال: إذا وقع يوم ذو كواكب أشنعا ومنه أيضا (إذا قلت عبد الله منطلق. تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر، وذلك قولك كان زيدٌ حليما، وكان حليما زيدٌ، لا عليك أقدمت أم أخرت، إلا أنه على ما وصفت لك في قولك: ضرب زيدا عبد الله. فإذا قلت: كان زيد فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك فإنما ينتظر الخبر...ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي يَنْزِل به المخاطب منزلتك في المعرفة[١٩]، وقد غدا ذلك أسلوبا للمؤلفات التي تلت الكتاب ونجد نحاة العربية من بعده يتبعون أسلوبه بالتركيز على مراعاة المتكلِّم لحال المخاطب، فالكلام إنما يوضع لإفادة المتلقي خبرا، ومن أمثلة جواب المبرد عن قوله تعالى (إذا السماءُ انْشَقَّتْ، وأذِنتْ لربها وحُقَّت)[٢٠] قال قوم: الخبر محذوف؛ لعلم المخاطب، كقول القائل عند تشديد الأمر: إذا جاء زيد، أي إذا جاء زيد علمت؛ وكقوله: إن عشتُ، ويكِل ما بعد هذا إلى ما يعلمه المخاطب.[٢١]

وهذا أشار له السهيلي وأكد عليه قائلا: لولا المتلقي لم يتكلف إنسان قولا، ثم لما كان المخاطب مشاركا للمتكلم في معنى الكلام، إذ الكلام مبدؤه من المتكلِّم ومنتهاه عند المخاطب، ولولا المخاطب ما كان كلام المتكلم لفظا مسموعا[٢٢].

وفي اعتبار دور المخاطب متلقيا على الصعيد الدَّاخلي الذي يتم حضوره داخل الخطاب اللغوي فعلى الصعيد ألآخر يوجد المتلقي الخارجي الذي تتعدد أشكاله وكذلك لن تكون القراءة مثمرة جادة إلا إذا وجد القارئ الافتراضي الخيالي، وهو الذي يعيد بناء النص عن طريق نقده وتأويله[٢٣]، فإذا قال ذهب ويتعدى....وقوله: إنما حسن الإخبار عن النكرة حيث أردت أن حالة تنفي أن يكون في مثل حالة شيء أو فوقه، لأن المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا، أي علم المخاطب[٢٤]. وأيضا القارئ الضمني: وهو "ليس له وجود في الواقع، وإنما هو قارئ ضمني، يخلق ساعة قراءة النص. ومن ثم، فهو قارئ له قدرات خيالية شأنه شأن النص، يوجه قدراته الخيالية للتحرك مع النص باحثا عن بنائه، ومركز القوى فيه، وتوازنه، وواضعا يده على الفراغات الجدلية فيه فيملؤها باستجابات الإثارة التي تحدث له" ومثال ذلك قول الأعلم الشنتمري[٢٥]: وأنشد للسليك بن السلكة(الوافر)[٢٦]:

تراها من يَبْسِ الماءِ شُهْبَا مُخالِطَ دِرَّةٍ منها غِرار

فإن قال قائل: لم احتج بقوله: مخالط درَّة وهو مضاف إلى نكرة فنعت بنكرة لأنه نكرة، ولو كان مضافا إلى معرَّف وهو نعت لنكرة لَعُلم أن إضافته غير صحيحة لما فيها من نية التنوين والنصب. فالجواب، أنه لما رفع ما بعده كان كالفعل له فكأنَّه قال: يخالط درة منها غرار، ولو كان في تأويل الماضي وكانت إضافته صحيحة للحق بالأسماء ولم يجر على ما قبله نعتا ولا رفع ما بعده، ألا ترى أنك لو قلت: رأيت رجلا غلام امرأة أبوه لم يجز إلا بالرفع. وهذا القارئ (الضمني) يوازي المبدع من

---

[١٧] سيبويه، الكتاب،١،٤٦-٤٧.
[١٨] الأعلم، الشنتمري، تحصيل عين الذهب، ٧٦.
[١٩] سيبويه، الكتاب، ١، ٤٧-٤٨، ١٣٨، ١٤١، ٢٨٣.
[٢٠] سورة الانشقاق،١.
[٢١] المبرد، المقتضب، ٢، ٧٩-٨٠؛ وممن ذكروا المخاطب أيضا وركزوا عليه ابن جني في خصائصه حيث عقد بابا في شجاعة العربية قائلا: قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة. وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه. وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب. أبن جني، الخصائص، ٢، ٣٦٠.
[٢٢] السهيلي، نتائج الفكر،دار الاعتصام، القاهرة، ٢١٩.
[٢٣] عبد المطلب، محمد، البلاغة العربية قراءة أخرى , مكتبة لبنان، بيروت،٢٥٦.
[٢٤] سيبويه، الكتاب، ١، ٣٥.
[٢٥] الأعلم الشنتمري، النكت، ١،٢٨٧.
[٢٦] الأعلم الشنتمري، تحصيل عين الذهب، ١٣٨.

حيث القدرات والذخيرة والتي يتعذر فهم النص بدونها ويدل على أن الحركات مأخوذة منها أنا إذا أردنا تحريك حرف بإحدى الحركات الثلاث، أملنا ذلك الحرف إلى مخرج الحرف المأخوذة منه تلك الحركة. فإن قال قائل: ولم زعمتم أنَّ التقاء الساكنين يوجب كسر أحدهما، دون أن يوجب ضمه أو فتحه؟ قيل له: في ذلك علتان: إحداهما: أنا رأينا الكسرة لا تكون إعرابا إلا باقتران التنوين بها، أو ما يقوم مقامه، وقد تكون الضمة والفتحة فيما لا ينصرف بغير تنوين يصحبهما، ولا شيء يصحبهما يقوم مقام التنوين، وإذا اضطررنا على تحريك الحرف حركناه بحركة لا يوهم أنها إعراب وهي الكسرة. والعلة الثانية: أنا رأينا الجر مختصا بالأسماء، ولا يكون في غيرها....ووجه آخر وهو أن المجزوم الساكن قد تلقاه ساكن بعده، فلو حركناه بالضم أو بالفتح لتُوُهِّم أنه فعل مرفوع أو منصوب[٢٧].

وإذا كان ثمة علاقة أساسية بين النص وسياقه، فإن القارئ ذو صلة مؤكدة بهذين العنصرين في العملية الابداعية، فالقارئ عند سيبويه بلا شك طرف أساسي في عملية التلقي، فهو في النَّص، ونرى علاقة عضوية بين عمليتي الإرسال والتلقي أو الكتابة والقراءة، فيقول سيبويه "تقول: جئتك أنك تريد المعروف، إنما تريد المعروف، ولكنك حذفت اللام ها هنا كما تحذفها من من المصدر إذا قلت(حاتم الطائي الطويل):[٢٨]

وأغْفِرُ عَوْراءَ الكريمِ ادِّخارَه وأعرِضُ عن شَتْمِ اللئيمِ تَكَرُّما

فالوظيفة التواصلية للغة هي أصل من الأصول المهمة عند سيبويه، والمتلقي عند سيبويه إيجابيا وفاعلا. إذ إن مصطلح التلقي يحيل إلى فاعلية القراءة. وإنتاج المعنى واستجابة القارئ لما يقرأ وهناك طرق يمكن للقارئ أن يتوقع من خلالها استجابة القارئ، وهذه العناصر جميعا يمكن أن تظهر في عنصر واحد إذا كان التقليد الذي بواسطته يتلقى القارئ النص ويقتنع به كما يقرؤه أو يستجيب له، وها هو شارح الكتاب أبو سعيد (رحمه الله) يقول: " ذكر سيبويه هذه المصادر المختلفة في الأفعال المتعدية، والأصل فيها عنده أن يكون على فَعْل لأنه أخف الأبنية...وقالوا سَخِطَه سَخَطا، شبهه بالغضب حين اتفق البناء، قال "ويدلك ساخط على أنه مدخل في باب الأعمال التي ثرى وتصنع " فيقول أبو سعيد يعني بالأعمال التي ثرى، الأعمال المتعدية؛ لأن فيها علاجا من الذي يوقعه للذي يوقع به، فتشاهد وترى، فجعل سَخِطَه مدخلا في التعدي، كأنه بمنزلة ما يرى".[٢٩] فالمتلقي شارح للنص ومستدرك عليه أيضا وقد يصل الأمر إلى تخطئته في المسألة ونحن نجد أبا سعيد في شرحه لكتاب سيبويه يأتي بكثير مما تركه الكتاب ويذكر ما جاء فيه من سهو أو خطأ أو نقص ففي "باب مصادر ما لحقته الزوائد من الفعل من بنات الثلاثة " أنكر أبو سعيد كلام سيبويه حين جعل الميم في المصدر (مفاعلة) عوضا من الألف في (فاعلت)وغلَّطه في ذلك؛ لأن الألف التي بعد أول حرف موجودة في مفاعلة، فبعد القاف في (قاتلت) ألف زائدة، وتقول في المصدر مقاتلة، وبعد القاف ألف زائدة، فالألف موجودة في الفعل والمصدر. وكذلك تتعدد القراءات في المسألة النحوية الواحدة فنجد من قرّائه من يؤيده ومن يعارضه، ففي مسألة يقول سيبويه[٣٠]: (فإن قلت: ذهب به مذهب. وهو بمنزلة قولك: ذهب به السوق وأنشد البيت لحميد بن ثور(الطويل):

وَما هِيَ إلاّ في إزارٍ وَعِلْقَةٍ مُغَارَ ابْنِ همَّامٍ على حَيِّ خَثْعَما

وزعم الزجاج أنَّ سيبويه أخطأ في ذكر هذا البيت في هذا الموضع، وذلك أنه قدر مغارا زمانا، والزمان لا يتعدى وإنما مغار مصدر، قال والدليل على ذلك أنه قد عداه، وإنما تقديره زمان إغارة ابن همّام على حي خثعم، ووافقه المبرد على ذلك[٣١]، غير أنَّ الأعلم[٣٢] عارضهما، ووافق سيبويه رأيه قائلا:

---

[٢٧] السيرافي، أبو سعيد، شرح كتاب سيبويه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦، ١، ١١٠-١١٢.

[٢٨] سيبويه، الكتاب ١: ٤٦٤؛ المبرد، المقتضب، ٢،٣٤٨؛ الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن ابن اسحاق، الجمل في النحو،بيروت مؤسسة الرسالة، أربد، دار الأمل، ١٩٨٤، ٣١٩؛ ابن يعيش، المفصل ٢، ٥٤.

[٢٩] السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، ١٩٨٣، دار الفكر، دمشق، ٤٠.

[٣٠] سيبويه، الكتاب، ٢٣٤،١.

[٣١] المبرد، المقتضب، ٢، ١٢١-١٢٢.

[٣٢] الأعلم الشنتمري، النكت، ١، ٣٢٥؛ الأعلم الشنتمري، تحصيل عين الذهب، ١٧٧؛

وقد غلطا في الرد عليه، لأن المصادر التي جعلها سيبويه ظروفا إنما هي مضاف إليها الزمان ويحذف الزمان فتكون نائبة عنه، فمغار بتلك المنزلة. مهنا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة وهي أن هذا التعدد التفسيري والاختلافات لا تفقر النص وإنما تثريه وتكشف عن آفاقه، ونرى أحيانا أن المعنى في النص لا يتشكل بذاته بل يتشكل لحظة القراءة وعبر مشاركة القارىء. وهذا منهج سيبويه مستحضرا للمتلقي المخاطب في كافة مسائل الكتاب يلتقي به فهو لا يضمر شيئا كما قال إلا بعد أن يعلم المخاطب به كما ذكر في باب ما يضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره في غير الأمر والنهي [٣٣]، وإنما أضمروا ما كان يقع مظهراً استخفافاً ولأن المخاطب يعلم ما يعني فجرى بمنزلة المثل كما تقول: لا عليك وقد عرف المخاطب ما تعني أنه لا بأس عليك.[٣٤]

أمن اللبس

المسألة الغامضة عند سيبويه هي المسألة التي فيها دقة نظر ومعنى غامض لطيف والغموض الذي نعنيه ليس الغموض الذي يصعب فتح أقفاله وتخطي أسواره ليصل إلينا، بل هو السمة الطبيعية الناجمة عن طبيعة هذا العصر.....والغموض المعني هنا هو ما يشد القارئ إلى حوار معه، ويستفز عقله من خلال غموض عبارته، إذ يتجسد الغموض في إغناء النص وتعدد دلالاته وقراءاته مما يخلق نوعا من اللذة الحسية والذهنية. وهذه الحال تخلق نوعا من التواصل والألفة بين النص والقارئ الذي يتلقى النص، ويشعر أنه بحاجة إليه مهما كان غامضا ليطفئ من خلاله طموحه الذهني. وهذا يجعل المتلقي لهذا العمل بحاجة فكرية ماسة من أجل تفسير دلالاته، مما يؤدي إلى اختلاف التأويل والتفسير لدى المتلقين كما مرَّ في سابقا، وقد استخدموا في الدلالة على ذلك مصطلحات كثيرة أشاروا بها إلى غموض المعنى ودرجات هذا الغموض مثل تعدد المعنى وكذلك فقد تعددت عند العلماء العرب القدماء الأسباب التي عزوا إليها غموض المعنى ومن ذلك الغموض في المصطلحات فلم تكن للنحو مصطلحات مستقرة يلتزمها سيبويه ولم يكن هو واضع علم النحو الأول. فثبت بعضها وتغير عضها الآخر مثل تسمية أنواع الإعراب والبناء مجاري أواخر الكلم. وحروف القسم حروف الإضافة، أو تعقيد التركيب النحوي فقد استخدم سيبويه مصطلح اللبس للدلالة على الغموض الناشئ عن وجود لفظ يحتمل أكثر من معنى أو دلالة أو تركيب يؤدي إلى الغموض، وفي جانب آخر يعتمد سيبويه في إقناعه لقارئه على عبارات متكررة تحتاج في الحقيقة إلى تعمق كبير، من قبيل "هذا تمثيل ولا يتكلم به" فهو يورد العبارة الشارحة بافتراض أمثلة يقدر بها المحذوف، يقول سيبويه: (وينبغي لك أن تسأل عن خبر من هو معروف عنده) - يقصد السامع- كما حدثته عن خبر من هو معروف عندك وهو المبدوء به. ويقصد سيبويه هنا بأن الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة لكي يصح السؤال عنه ومنه أيضا حين قال: وكذلك لا يجوز زيداً وأنت تريد أن أبلغه أنا عنك أن يضرب زيداً؛ لأنك إذا أضمرت فعل الغائب ظن السامع الشاهد إذا قلت: زيداً أنك تأمره هو بزيد، فكرهوا الالتباس هنا ككراهيتهم فيما لم يؤخذ من الفعل نحو قولك: عليك أن يقولوا عليه زيداً لئلا يشبه ما لم يؤخذ من أمثلة الفعل بالفعل. وكرهوا هذا في الالتباس وضعف حيث لم يخاطب المأمور كما كره وضعف أن يشبه عليك وهذه حجج سمعت من العرب وممن يوثق به يزعم أنه سمعها من العرب. من ذلك قول العرب في مثل من أمثالهم: " اللهم ضبعاً وذئباً " إذا كان يدعو بذلك على غم رجل

وهذا المصطلح وُجِدَت أصداؤه فيما بعد حيث يقول: تمام حسان[٣٥]:"إن اللغة العربية- وكل لغة أخرى في الوجود- تنظر إلى أمن اللبس باعتباره غاية لا يمكن التفريط فيها، لأن اللغة الملبسة لا تصلح واسطة للإفهام والفهم وقد خلقت اللغات أساسا للإفهام وإن أعطاها النشاط الإنساني استعمالات أخرى فنية ونفسية. فإذا كان من الممكن الوصول إلى المعنى بلا لبس مع عدم توفر إحدى القرائن اللفظية الدالة على هذا المعنى، فإن العرب كانت تترخص أحيانا في هذه القرينة لأن أمن اللبس

---

[٣٣] سيبويه، الكتاب، ١، ٢٥٧.
[٣٤] سيبويه، الكتاب، ١، ٢٢٤
[٣٥] حسَّان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ٢٣٣.

يتحقق بوجودها وبعدمه. وكذلك صاغ تمام حسان قاعدة في أصول النحو وتتلخص في العبارة لا ضرر ولا ضرار [٣٦]

وإذا كان المتكلم هدفه إفهام المخاطب رسالته اللغوية؛ لذلك يرتبها بالأسلوب الذي لا يدع معه للبس مجالا، فالالتباس ممنوع أبداً لمنافاته القصد من وضع اللغة، لذلك تحدث السيوطي بإسهاب في فصل تحت عنوان" اللبس محذور " وهو الأساس الذي بنى نحاة العربية عليه قواعدهم، وأسسوا بناء عليه تصوراتهم وتعليلاتهم لمباحث اللغة، فاللبس محذور عندهم، ولا ينبغي إلا أن يكون كذلك، ولهذا بحثوا الأشباه والنظائر التي يمكن أن يقع الخلط واللبس فيها. [٣٧]

والمتلقي عند سيبويه يقوم بدور المحاور والمشارك في العملية، وهذه المناوشة الفكرية ما بين المتلقي والنص تجعل المتلقي أكثر تحفزا للوصول إلى إدراك النص والشعور بالمتعة الفكرية، وهذا يعني أن القارئ شريك للمؤلف في تشكيل المعنى لأن النص لم يكتب إلا من أجله ومثال ذلك (وتقول أعبدُ الله ضرب أخوه زيداً، لا يكون إلا الرفع، لأن الذي من سبب عبد الله مرفوع فاعل، والذي ليس من سببه مفعول، فيرتفع إذا ارتفع الذي من سببه، كما ينتصب إذا انتصب...فإن جعلت زيدا الفاعل قلت: أعبد الله ضرب أخاه زيد. وتقول: أعبدُ الله ضرب أخوه غلامه إذا جعلت الغلام في موضع زيد حين قلت:.. [٣٨]

وعند قوله [٣٩] وتقول: (ما كلُ سوداءَ تمرةً ولا بيضاءَ شحمةٌ وإن شئت نصبت شحمةً. وبيضاء في موضع جر كأنك أظهرت كل فقلت ولا كل بيضاءً.

قال الشاعر أبو داود) المتقارب):

أكلَّ امرئٍ تَحْسَبينَ امْرَأ ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا

فاستغنيت عن تثنية كل لذكرك إياه في أول الكلام ولقلة التباسه على المخاطب. [٤٠]، والأول أجود؛ لأنه لم يضع واحداً في موضع جمع، ولا جمعاً في موضع واحد. ومثله قول الفرزدق(الكامل): [٤١]

إني ضمنت لِمَنْ أتاني ما جَنَى وأبَى فكان وكنت غيرَ غدورِ

ترك أن يكون للأول خبر، حين استغنى بالآخر لعلم المخاطب أن الأول قد دخل في ذلك. ولو تحمل الكلام على الآخر لقلت: ضربت وضربوني قومك وإنما كلامهم: ضربت وضربني قومك. وإذا قلت ضربني لم يكن سبيل للأول؛ لأنك لا تقول ضربني وأنت تجعل المضمر جميعاً، ولو أعملت الأول لقلت مررت ومر بي بزيد. وإنما قبح هذا أنهم قد جعلوا الأقرب أولى إذا لم ينقض معنىً.

قال الشاعر وهو الفرزدق (الطويل) [٤٢]:

ولكِنَّ نصفاً لو سَبَبْتُ وسَبَّني بَنو عبدِ شمسٍ من مَنافٍ وهاشمِ

وقال طفيل الغنوي (الطويل):

وكَمْتاً مُدَمَّاةً كأنَّ مُتونَها جَرَى فَوْقَها واستشْعَرَت لَوْنَ مُذْهَبِ

أي إن التلقي يتأسس لدى سيبويه على الركيزة النحوية وتلك الفروق الأسلوبية بين تراكيب اللغة، ستغدو لدى المبدع خصائص فردية، ولدى المتلقي سننا معروفة لا يجوز للأول إلا أن

---

٣٦ حسَّان، تمام، الأصول، ١٤٨.

٣٧ السيوطي، جلال الدين، الأشباه والنظائر، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١،٣٣٩.

٣٨ سيبويه، الكتاب، ١، ٢٥٨.

٣٩ سيبويه، الكتاب، ١،٦٥-٦٦.

٤٠ الأعلم الشنتمري، تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤، ٩٢.

٤١ تقدير هذا البيت عند سيبويه فكان غيرَ غدور وكنت وهذا التقديم والتأخير لا يُنجي من خالف سيبويه من أن يكون أحد الخبرين وحذوفا لأنه إذا قال: فكان غير غدور وكنت عُلم أنَّ المعنى وكنت كذلك، فإذا كان حمله على التقديم والتأخير لا يخرجه عن الحذف فقول سيبويه أولى، الأعلم الشنتمري، تحصيل عين الذهب، ٩٩.

٤٢ سيبويه، الكتاب، ١،٧٦-٧٨.

يحتذيه، ثم على المتلقي كذلك معرفة تلك الفروق بينها ليقدر صنيع المبدع قدره، وإلا تلقاها على درجة سواء، ونرى سيبويه يستحضر لحظة التلقي في إدراك التعالق بين مفردات التركيب، وما يتضمنه من التوطئة حين يقول:(لا يؤتى بالاسم معرًى من العوامل إلا لحديث قد نوي إسناده إليه، فإذا قلت: "عبدالله" فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً: "قام" أو قلت: "خرج" أو قلت: "قدم" فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له في قوله تعالى:(فإنها لا تعمى الأبصار)[٤٣] ويرتب سيبويه المسافة الفاصلة بين المخاطب والمتكلم والغائب في الواقع التداولي تعليله لحسن تقديم ضمير المتكلم فالمخاطب ثم الغائب وقبح عكس ذلك[٤٤]. فالقارئ إذا صار جزءا من الحدث، ووقع في شراك اللغة فلن تكون ثمة حاجة لديه للبحث عن المعنى، إن سيبويه تناول في الكتاب مستويات اللغة جميعها بالدراسة، فإن قارئ نصه عليه محاولة اكتشاف آلياته للوصول إلى دلالته ومغزاه، وهذا يتطلب طبعا إعمال العقل في ترتيب مستوياته، فسيبويه قدم من خلال مؤلفه رؤية عامة واسعة وشاملة للنظام اللغوي الذي يتصرف من خلاله المتكلم، ونجده يؤكد تماما أن الغاية والهدف الأمثل من الدرس اللغوي هو إفهام المتلقي. لذلك وجدنا القارئ يقدم الشروح والتأويلات والتفسيرات لمسائل النحو، وهي مقاربة واجتهاد لحقيقة النص اللغوي الذي ما هو إلا نظاما معرفيا يكتشف البناء اللغوي ذاته، فتعليلات النحاة إذن هي تعليلات وتفسيرات لشرح الظواهر اللغوية. فالمقولات النحوية من قبيل الفاعل والمفعول والاسم والفعل والحرف والنصب والرفع والكسر والعمل...هي لتأويل النظام اللغوي عندهم، مثلا باب الفاعلين والمفعولين الذين كل واحد منهما يفعل بفاعله مثل: "ضربت وضربني زيد" و"ضربني وضربت زيدا"، تحمل الاسم على الفعل الذي يليه، فالعامل في اللفظ أحد الفعلين، وأما في المعنى فقد يعلم أن الأول قد وقع، إلا أنه لا يعمل في اسم واحد نصب ورفع وإنما كان الذي يليه أولى لقرب جواره، وأنه لا ينقص معنى وان المخاطب قد عرف أن الأول قد وقع بزيد[٤٥]. يقرر سيبويه على أن اللفظ يؤثر في لفظ آخر يتجاور معه وهذا هو معنى العامل فقد يأتي الاسم بعد فعلين ويصح أن يقع فاعلا لاحد الفعلين كما يقع مفعولا لفعل آخر. وهكذا، فالمقولات تتبادل المواقع في الجملة وهي بذلك عوامل ومعمولات. وإذ استشكل الأمر رُد إلى افتراض ذهني لتفسير الظاهرة لكي لا تبقى عالقة. ومن هنا نجد الخلاف وقع بين علماء البصرة وعلماء الكوفة فقالوا إن مفهوم "العامل" النحوي هو مجرد تصور ذهني تأويلي عند سيبويه، يظهر هذا انطلاقا من باب الاشتغال[٤٦] ففي مثال "زيد مررت به" يرى أن الرفع في "زيد" هو الأوجه، وذلك على العكس في مثال "زيدا ضربته" فالنصب في هذا المثال الأخير أمثل، لكن ذلك لا يمنع أن يقال "زيدا مررت به " وذلك على تأويل فعل مضمر نصب "زيدا" لا على انه منصو بالفعل التالي له الذي تعدى إلى ضميره -ضمير زيد- بحرف الجر، فهذا التأويل ضروري. وفي جانب آخر يعتمد سيبويه في إقناعه لقارئه على عبارات متكررة تحتاج في الحقيقة إلى تعمق كبير، من قبيل "هذا تمثيل ولا يتكلم به" فهو يورد العبارة الشارحة بافتراض أمثلة يقدر بها المحذوف مثلا كما ذكرت فالكتاب يقوم على أساس العامل وهو عنده مجرد تصور ذهني لا غير[٤٧] وأنه أداة تحليلية لبناء علم النحو، وهذا المفهوم رفضه ابن مضاء القرطبي قائلا[٤٨]: إن وضع هذه العوامل لا شيء فيه من ذلك، بل تقدير وتخيل في نظر المذهب الظاهري حمل الكلام على غير ظاهره مرفوض، وأصل العمل للمتحدث، فلا حاجة لإعمال العقل الانساني لافتراض العامل، وإن التأويل ليس لتبرير كل خطأ بل لرد النادر في الاستعمال إلى النظام اللغوي. وذلك لاستيعاب كل ما يعدل عن الثابت إلى داخل النظام ووافقه هذا الرأي ابن

---

٤٣ سورة الحج:٤٦.

٤٤ سيبويه، الكتاب، ٢، ٣٦٤.

٤٥ سيبويه، الكتاب، ١، ٧٣-٧٤.

٤٦ ذهب الكوفيون إلى أن الاسم المشغول عنه منصوب بالفعل الواقع على الهاء وذهب البصريون إلى أنه منصوب بفعل مقدر، الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، ١، ٢.

٤٧ الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، كثير من المسائل دارت حول العامل، ومثل ذلك: القول في رافع المبتدأ ذهب الكوفيون إلى أن المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ فهما يترافعان، وذهب البصريون إلى أن المبتدأ يرتفع بالابتداء !، ٤٩ وكذلك القول في العامل في الاسم المرفوع بعد لولا،٤٩،١، وأيضا عامل النصب في الظرف ١، ٢٢٥.

٤٨ ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٨، ٧٦-٧٧.

جني[٤٩] .وقد نجد سيبويه في بعض الأحيان يضع قاعدة لبعض الشواهد القليلة عند العرب مثل قولهم " جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ " وهي قاعدة الجوار، فالمفروض أن "خرب " نعت لجحر، ولذلك فالقاعدة أن ترفع، ولكنها جرت للاتباع أو الجوار. وعلى مثل ذلك التأويل أيضا ما يسميه سيبويه " الإجراء على الموضع ": قولك ليس زيد بجبان ولا بخيلا، وما زيد بأخيك ولا صاحبك، والوجه فيه الجر لأنك تريد أن تشرك بين الخبرين، وليس ينقض إجراؤه عليك المعنى. وأن يكون آخره على أوله أولى، ليكون حالتها في الباء سواء كحالهما في غير الباء مع قربه منه. وقد حملهم قرب الجوار على أن أجروا: هذا جحر ضب خرب[٥٠] ، ونحوه فكيف ما يصح معناه. كما كان وعي القدماء كبيرا بصعوبة التفاسير والتأويلات نظرا لبعد الدارس عن موضوعه فإذا حصل إدراك النحاة للغة فإنما يحصل من جانب فقط كما بينا أعلاه. وعليه فإننا نستنتج أن تعليلات النحاة ما كانت إلا تأويلات وتفسيرات لشرح الظواهر اللغوية، وفي تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة[٥١] ذكر في "باب من الابتداء يضمر فيه ما بني على الابتداء " فقد ترك الأخفش والمازني والأصمعي وأبا زيد وأبا مالك في حيرة من أمرهم في تأويل هذه المقولة فقالوا: ما ندري ما هو؟ إلى أن فسره أبو إسحاق الزجاج فقال: معناه على كلام تقدم، كأن قائلا قال ليس زيد بغافل. فقال المجيب بلى ما أغفله عنك، انظر شيئا، أي تفقد أمرك. فاحتج به على الحذف يريد حذف " أنظره " الناصب "شيئا " ويؤكد سيبويه على حضور المتلقي معه فيبرر كل ما يذكر له بقوله «وليس شيء يضطرون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجهاً»[٥٢] .وذلك في باب ما يحتمل الشعر، وهو ما يجوز في الكلام وسيبويه يميز للمتلقي بين الكلام المحال والكلام المستقيم الكذب، من منطلق الفصل بين النحو والدلالة، أي المبنى والمعنى. وبذلك فهو يؤكد على طبيعة التلقي فيقول: في باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غداً وسآتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر " ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيت وكي زيداً يأتيك وأشباه هذا. وأما المحال الكذب أن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس. وهو ينبه إلى الطبيعة المخصوصة للتلقي، فيراه تعاملاً مع المستتر، وترويضاً للعصي الدفين، وذلك من أسس مفهومه للمتلقي الذي يكشف الستر، ويطلب المخبوء، مستدلاً بالإشارة والإيماءة، المفهوم يصبح النص عند سيبويه "شفرة" بين المبدع والمتلقي، كلما أوغل الأول في تعميتها، كان الآخر أمكن في فكها وفهمها حين يوظف خصيصة التلقي لديه.

المقام

وكذلك نجد سيبويه يركز كثيرا على ما يسميه "المقام" ولا يغفله في غير موضع، حيث تتشكل فيه العناصر اللغوية، والمقام تتمثل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية ساعة أداء المقال وهي التي تشتمل على القرائن الحالية [٥٣] وهو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي[٥٤] ، وتأثير عناصره على المقال دلالياً وتركيبياً، وقد اعتبر صاحب مواهب الفتاح أن الحال والمقام شيء واحد حيث قال: فتقرر بهذا أن المقام والحال شيء واحد، وأنه لا فرق بين المقام والحال في الحقيقة بل الفرق بينهما بالوهم[٥٥] ، وأن معنى الكلام لا يتأتى فصله بأية حال من الأحوال عن السياق الذي يعرض

---

[٤٩] ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، المكتبة العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٥٢، ج ١، ١٥٤ ـ١٥٥

[٥٠] سيبويه، ١، ٣٤٦.

[٥١] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، القاهرة، مكتبة التراث،١٩٥.

[٥٢] سيبويه، الكتاب، ١، ٣٢.

[٥٣] تمام، حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ٣٣٩.

[٥٤] الموسى نهاد، نظرية النحو العربي، مكتبة وسام، الأردن، ١٩٨٧، ٩٤ .

[٥٥] المغربي، أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، المجلد الأول، ١٢٨.

فيه[٥٦]، فبحكم الترابط القائم بين المقال والمقام تصبح خصائص الكلام غير منفصلة عن السياق الذي يحتويه، والمقام يشمل المتكلم والسامع والعلاقات الاجتماعية[٥٧] وهذا يشمل العلاقة بين المتخاطبين في موقف التلقي، والتضمنات التي تكون عاملاً مهماً في تحديد مدلول المقال وصيغته التركيبية، والنظام اللغوي.. خلق للإفادة أي تبليغ أغراض الكلام للمستمع وتوضيح المقام جزء من توضيح المعاني النحوية التي أراد سيبويه أن يوصلها لقارئة، فاعتبر المخاطب (المتلقي) قطبا من أقطاب العملية التواصلية، فمراعاته ومراعاة مقامه وجلب انتباهه يؤثر في تركيب الجمل وفق ترتيب معين، حيث قال نهاد الموسى في حديثه عن البعد الخارجي في التحليل النحوي عند سيبويه؛ أنه يفزع إلى السياق والملابسات الخارجية وعناصر المقام ليردَّ ما يَعْرِض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام اللغوي[٥٨] لذلك يوضح هذه المعاني من خلال حديثه عن المقام لتصل إلى المتلقي الذي يُعدُّ أحد أقطاب العملية التواصلية والذي يعدّ من البحث نهايته، ففي المقال:" ضرب عمرو زيداً" التضمن هو "ضرب إنسان ما زيداً" والجزء المؤكَّد هو عمرو، وعلامة تأكيده هو تقديمه، أما في المقال:" ضرب زيداً عمرو" التضمن هو "ضرب عمرو إنساناً ما"، ومن هنا ينبغي لنا أن ننظر إلى المتلقي هل يستطيع أن يزيد من عند نفسه في النص شيئاً ليس هو له في اللغة...وإذا نظرنا وجدناه لا يستطيع أن يصنع بالنص شيئاً أصلاً،....فعلم النحو لدى سيبويه يشمل قوانين اللغة كما هي عند النحاة من قبله، وخاصة الفروق بين التراكيب(وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: "زيد منطلق" و"زيد ينطلق" و"ينطلق زيد"...وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: "إن تخرج أخرج"، و "إن خرجتَ خرجتُ"...وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك "جاءني زيد مسرعاً" و"جاءني يسرع"...فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له... وينظر في "الحروف" التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى...وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل... ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وفي الكلام كله.. أي أن التلقي الفني يتأسس لديه على الركيزة النحوية.

إن كلا من المقام والمتكلم والمخاطب عناصر غير لغوية يجب مراعاتها، ليتحقق الغرض الذي من أجله وضع الكلام، وتنجح العملية التواصلية.

الخاتمة

آثرت دراسة مصطلح التلقي عند سيبويه؛ لأن الكتاب يضم بين دفتيه قوانين اللغة كما وردت عن النحاة، وشيء طبيعي أن يخرج هذا العمل، فيتلقاه القرَّاء الذين لم يكونوا على مستوى واحد في كيفية الاستقبال، وتختلف لديهم أسباب التلقي ويفسر ذلك تفاوت المستويات الاستيعابية لديهم.

ومن ثم، فعمل سيبويه أكبر من النص وأكبر من القراءة، بل هو ذلك الاتصال التفاعلي بينهما في بوتقة منصهرة واحدة، لقد كان سيبويه في نصوصه التي كتبها إنما ينشئ تصوراً متكاملاً للتلقي، وإن المتلقي الذي ظل حاضراً على الدوام في ذهن سيبويه، فهو القسيم الموضوعي للمبدع، بحيث يمكننا القول إنه كان يبدع في نظرية التلقي، فمن القواعد التأصيلية التي ركز عليها في مؤلفه أمن اللَّبس، التي بدورها تقي المتلقي من الوقوع فيه، فيتبادر لذهنه ما لم يقصده السامع، فهو يرتب أفكاره حتى لا يدع مجالا للمتلقي للوقوع فيه وقالوا قاعدة الإفادة أو أمن اللَّبس الأصل في الكلام أن يوضع لفائدة، وفي الإطار نفسه حينما يتحدث عن الحذف لا يجيزه إلا إذا علم به المتلقي وفهم المراد منه.

---

٥٦ السعران، محمود، علم اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٦٥. الموسى نهاد، نظرية النحو العربي، مكتبة وسام، الأردن، ١٩٨٧، ٩٤.

٥٧ تمام، حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ٣٥٣.

٥٨ الموسى نهاد، نظرية النحو العربي، ٩٧ .

والمخاطب المتلقي له حضور عند سيبويه، فكان كتابه يشمل على خصائص متبادلة بينه وبين المتلقي في الكلام شعرا كان أم نثرا

وكان المتلقي عنده متنوعا، بين من أنكر الكثير من قوله وبين من أيَّد، وهذا المتلقي كذلك يحتاج إلى أدوات معرفية حتى يتمكن من الفهم الصحيح للنص الذي يدعوه إلى القراءة المتجددة التي تكشف في كل مرة ما لم يكتشفه سابقه، كما أنه ركز على ظروف التلقي، وهو ما أطلق عليه المقام. حيث أن عمل سيبويه على كثرة ما أُلّف بعده لم تتغير بهجته، ولم تخلق جدته، فهو كالنهر المتدفق تغذي جداوله ما جاء بعده.

المراجع

القران الكريم.

١-الأعلم الشنتمري، تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤.

٢-الأعلم، الشنتمري، النكت في تفسير كتاب سيبويه، الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية،١٩٨٧.

٣-الأنباري، كمال الدين أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

٤-الأنباري كمال الدين أبو البركات، نزهة الألباء، بيروت، المكتبة العصرية،٢٠٠٣.

٥-بشرى صالح موسى، نظرية التلقي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠١؛

٦-ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، المكتبة العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٥٢،

٧-ابن جني، أبو الفتح عثمان، سر صناعة الإعراب، دمشق، دار القلم، ١٩٩٣.

٨-حسَّان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء (د.ت)

٩-حسَّان، تمام، الأصول، دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.

١٠-الزبيدي، أبو بكر، طبقات النحويين واللغويين، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٣.

١١-الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، الجمل في النحو، بيروت مؤسسة الرسالة، أربد، دار الأمل، ١٩٨٤.

١٢-السعران، محمود، علم اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، د، ت.

١٣-سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢.

١٤- السيرافي النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، ١٩٨٣، دار الفكر، دمشق.

١٥-السيرافي، أبو سعيد، شرح كتاب سيبويه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

١٦-السهيلي، نتائج الفكر، دار الاعتصام، القاهرة، ٢١٩.

١٧-السيوطي، جلال الدين، الأشباه والنظائر، بيروت، دار الكتب العلمية، د، ت.

١٨-السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٨.

١٩-صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، القاهرة، ميريت للنشر والمعلومات، ٢٠٠٢.

٢٠-ضيف، شوقي، المدارس النحوية، القاهرة، دار المعارف،١٩٧٦.

٢١-طنطاوي، محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٧.

٢٢-عبد المطلب، محمد، البلاغة العربية قراءة أخرى ¸ مكتبة لبنان، بيروت،١٩٩٧.

٢٣-العسقلاني، حافظ العصر شهاب الدين أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثمانية،القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٦.

٢٤-العلوي، أحمد، الطبيعة والتمثال، مسائل عن الإسلام والمعرفة، الشركة المغربية، ١٩٨٧.

٢٥-ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، القاهرة، مكتبة التراث،١٣٩٣ هـ.

٢٦-القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، أنباه الرواة على أنباء النحاة، القاهرة، دار الفكر العربي،١٩٨٦.

٢٧-المبرِّد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، بيروت، عالم الكتب، ١٩٦٣.

٢٨-محمد مفتاح، التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠١.

٢٩-مسعود، فوزي، سيبويه جامع النحو العربي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٦.

٣٠-ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٨.

٣١-المغربي، أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

٣٢-الموسى نهاد، نظرية النحو العربي، الأردن مكتبة، وسام، ١٩٨٧.

٣٣-ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش، شرح المفصل، بيروت، عالم الكتب، د، ت.

****